

تمهيد:

لقد استوقفتني -وأنا أدرس كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني- بعض المباحث التي قد تعدُّ من الأمور الدِّينية الخالصة، ولكنَّ ابن رشيق تناولها في هذا الكتاب النقدي الخاص بالشعر، ليدلَّ على أنَّ هذه المسائل لها علاقة بالشَّعر أيضًا، ولهذا ارتأيت أن أتناولها في بحث مستقلٍّ لأقف من خلال كتاب العمدة وغيره على موقف النِّقاد قديما وحديثا من هذه المسائل، والمتمثلة في: النِّية والبسمة والدعاء في الشَّعر.

1/ النِّية في الشَّعر:

النِّية في ديننا هي أصل الأعمال ومدار القبول والجزاء، وهذا استنادًا إلى الحديث الشَّريف الذي يُؤكِّد على قيمة النِّية في كلِّ الأعمال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ» -وفي رواية: بالنِّيَّاتِ- «وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجَرْتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجَرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»⁽¹⁾

فالنِّية من عمل القلب، وهي التي تُعطي الأعمال قيمتها الحقيقية، وهي نواة الصِّلاح، وبذرة القبول، وجزاء الإنسان على أعماله مرهون بصلاح النُّوايا. والنِّية في الأعمال كالأرواح في الأجساد، ومن خطير أمرها أنها لا تدع قولاً ولا فعلاً إلا كانت أصله ومبدأه. هذا ما يتعلَّق بالأفعال والأعمال خاصة التَّعبدية منها، لكن هل يُمكن أن تكون النِّية أحد مقوِّمات العمل الأدبي كالشَّعر مثلاً؟

يُجيبنا على هذا السؤال ابن رشيق في كتابه العمدة حين تطرَّق إلى قضية حدِّ الشَّعر وبنيته، حيث يقول: "الشَّعر يقوم بعد النِّية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ والوزن والمعنى والقافية، فهذا هو حدُّ الشَّعر، لأنَّ من الكلام موزوناً مقفًى وليس بشعر: لعدم القصد والنِّية، كأشياء اتَّزنت من القرآن ومن كلام النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم، وغير ذلك ممَّا لم يُطلق عليه أنه شعر."⁽²⁾

وما نفهمه للوهلة الأولى أنَّ ابن رشيق يشترط النِّية كمقوِّم أول للشَّعر، والمقوِّمات الأخرى من لفظ ووزن ومعنى وقافية تأتي بعد النِّية. وهنا لن أتناول بالتحليل حدَّ الشَّعر عند ابن رشيق من جانبه الفنيِّ أو العروضي، والذي يتقاطع فيه مع غيره من النقاد، خاصة مع قدامة الذي عرّفه بأنه: "قول موزون مقفًى يدل على معنى"⁽³⁾، وإنَّما سأتناول مقدِّمة التعريف فقط، وهي قوله: (الشَّعر يقوم بعد النِّية)، فهو يضع النِّية أساسَ العملية الإبداعية الشعرية؛ فإذا كانت النِّية قيمةً وأساساً حاضراً في كلِّ الأعمال الفعلية، فلا ضيَر أن تكون حاضرة كذلك في الأعمال القولية، فلا تمايز بين الأعمال سواء كانت عضلية أو فكرية، فالنِّية تُعتبر فاتحة كلِّ عمل، ومبدأ حصوله، "فلا فرق في ذلك بين شعيرة دينية محضة، وبين عمل دنيوي كأن يكون تجربة أدبية أو صناعة حرفية، حتَّى الشَّعر فإنَّ النِّية فيه تُعدُّ عماد بيته وأساسه المتين، كما أشار إلى ذلك ابن رشيق"⁽⁴⁾، وقياساً على الحديث الشَّريف: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ . أَوْ بِالنِّيَّاتِ»، هل يجوز لنا أن نقول: «إِنَّمَا الْأَشْعَارُ بِالنِّيَّةِ أَوْ بِالنِّيَّاتِ»؟

وأقرب المعاني للفظ النية هو القصد والإرادة، جاء في لسان العرب: "وقيل: سُمِّيَ الشَّعر التَّامَّ قصيداً لأنَّ قائله جعله من باله، فقصد له قَصْداً".⁽⁵⁾، فقولُه: (جعله من باله)، يعني أنه نواه وأرادَه. وإذا سلَّمنا أنَّ الأشعار بالنيَّات، فإنَّ هذه النية هي التي تُكسب الشَّعر التَّميُّز والخلود والفُرادة؛ ذلك أنَّ العمل الأدبي -أيَّ كان- هو نسيج صاحبه، يحمل بصماته، ويُجسِّد روحه وفكره، ويكشف عن ظاهره وباطنه. "فالشَّعر كمؤلفه تماماً، يملك هو الآخر قلباً وباطناً يكون محشواً بالخبايا والأسرار، وفيه تَعَلُّقُ المقاصد والنَّوايا".⁽⁶⁾

وتأكيد ابن رشيق على النية في الشعر لم يكن اعتباطاً، بل كان عن قَصْدٍ، فالنية مقياس ديني خالص، يهدف الناقد من خلاله إلى الفصل التَّام بين الشَّعر وبين أيِّ كلام آخر قد يأتي موزوناً مقفياً، كما جاء في بعض آي القرآن الكريم، أو كلام النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا ما وضَّحه في باب (الرَّجَز والقصيد)، لمَّا ذكر "أنَّ قومًا يرون أنَّ مشطور الرَّجْز ليس بشعر؛ لقول النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم: «هل أنت إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيَّتٍ، وفي سَبِيلِ الله ما لَقِيَّتِ»"⁽⁷⁾

فيردُّ عليهم، قائلاً: وليس هذا دليلاً، وإنَّما الدليل في قول النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم عدم القصد والنية؛ لأنَّه لم يقصد به الشَّعر ولا نواه، فلذلك لا يُعدُّ شعراً، وإن كان متَّزناً".⁽⁸⁾ فالنية هي شرط عند ابن رشيق لتمييز الشَّعر عن أيِّ قول آخر توقَّرت فيه بعض مقوِّمات الشَّعر الأخرى، وهذا الشرط قائم على القصدية التي تولَّدت نتيجة الإحساس والانفعال الداخلي، ثمَّ الرَّغبة في التأثير والإثارة الخارجية، وهذا ما يُفسِّر لنا قوله في موضع آخر: "وإنَّما الشَّعر ما أطرب، وهزَّ النفوس، وحزَّك الطُّباع، فهذا هو باب الشَّعر الذي وُضِعَ له وبُني عليه لا ما سواه".⁽⁹⁾

وشرط النية في الشَّعر قد استلهمه ابن رشيق من بعض النُقَّاد السابقين، ونعني خاصة الجاحظ والباقلاني، فنجد له إشارة في كتاب البيان والتبيين، يقول الجاحظ: "إعلم أنَّك لو اعترضت أحاديث النَّاس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل (مستفعلن مستفعلن) كثيراً، و(مستفعلن مفاعلن)، وليس أحدٌ في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً. ولو أنَّ رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن (مستفعلن مفعولات)، وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشَّعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يُعلم أنه من نتاج الشَّعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعراً".⁽¹⁰⁾

وفي بيان وجوه إعجاز القرآن، ونفي الشَّعر عنه، يذكر الباقلااني كلاماً فيه إشارة إلى أنَّ الشَّعر يجب أن يكون مقصوداً من صاحبه، وإلا فهو ليس بشعر. فيقول: "فثبت بهذا أنَّ ما وقع هذا الموقع لم يُعدَّ شعراً، وإنَّما يُعدُّ شعراً ما إذا قصده صاحبه تأتَّى له، ولم يمتنع عليه. فإذا كان هو مع قصده لا يتأتَّى له، وإنَّما يعرض في كلامه عن غير قصد إليه، لم يصحَّ أن يُقال: إنه شعر، ولا إنَّ صاحبه شاعر، ولا يصحُّ أن يُقال: إنَّ هذا يُوجب أنَّ مثل هذا لو اتَّفَق من شاعر فيجب أن يكون شعراً؛ لأنَّه لو قصده لكان يتأتَّى له".⁽¹¹⁾

فابن رشيق وإن سبق كما رأينا إلى هذا الرأي، بوجوب وجود النية والقصد في الشعر، إلا أننا نسجل له أسبقية استعماله مصطلحاً لم يُستعمل من طرف غيره، ألا وهو مصطلح (النية)، فالجاحظ والباقلاني استعمالاً مصطلح (القصد)، ومعلوم ما للفظ النية من دلالة من الناحية الدينية، فهي معيار ديني خالص، مجرد غير محسوس، وهذا المعيار "بمثابة مولد معنوي يستقر في بنية النص العميقة ثم يوجه بنيته السطحية".⁽¹²⁾

كما نسجل أيضاً في هذه المسألة أن بعض النقاد المعاصرين رفضوا فكرة شرط النية في الشعر، وقالوا: أن ابن رشيق لم يأت بجديد في مفهوم الشعر، وكان يأخذ من آراء غيره، مثل قدامة والرُّماني والجرجاني.⁽¹³⁾

وبعضهم يرى أن إضافة ابن رشيق لشرط النية لا قيمة له ولا طائل منه؛ لأن النية تحصيل حاصل في كل عمل، فهذا الدكتور عثمان موافي يقول: "وواضح من هذا النص أن ابن رشيق قد حافظ على جوهر تعريف قدامة، ولم يُضف إليه إلا كلمة (النية)، وليس هناك ما يدعو لذكر هذه اللفظة في تعريف الشعر؛ لأنها ليست خاصة به وحده، ولكنها عامة في كل عمل وصناعة أدبية. فالنية سابقة لكل عمل، يقصد إليه الإنسان قصداً، وهذا من البديهيات".⁽¹⁴⁾

ونتساءل إذا كانت النية من البديهيات في كل الأعمال، فلم يؤكّد العلماء على ذكرها ووجوب الإتيان بها قبل الشروع في العمل؟ فوجود النية أساس في قبول الأعمال ابتداءً، ولا اعتبار للعمل دونها مهما كان قيماً أو صالحاً. ثم إن الدكتور موافي يُقر أن النية ليست خاصة بالشعر، فهي عامة في كل عمل وصناعة أدبية، وهو مُصيب في هذا، إلا أن نتيجته خاطئة حين يرى أنه لا يوجد داعٍ لذكر النية في تعريف الشعر، -وحجته أنها من البديهيات-؛ لأننا سنجد أنفسنا في مأزق أمام بعض الكلام الذي توقّرت فيه أركان الشعر من لفظ ومعنى ووزن وقافية، من مثل ما قال الجاحظ، فهل نعده شعراً أم نثراً موزوناً فقط؟ وهذا ما يرمي إليه ابن رشيق، فالنية في الشعر تركز على قصدية وزنه، وإرادة توليده وتأليفه.

فابن رشيق باشتراطه النية في الشعر قد أضاف للشعر معنى جديداً يتعلّق أساساً بقصدية توليده واختراعه، كما استطاع بذلك تمييزه عن غيره من الكلام الموزون، والذي ليس بشعر. ومع ذلك، فهذا التعريف ما زال قاصراً عن تحديد مفهوم الشعر تحديداً دقيقاً وافياً.

وشرط النية في الشعر كما يراه ابن رشيق، لم يستسغه بعض النقاد المعاصرين، مثل الدكتور عبد الملك مرتاض الذي يرى أن القصد والنية لا علاقة لهما بشعرية النص الشعري، فيقول بعد عرضه مفهوم الشعر عند ابن رشيق: "والحق أن هذا الرأي يحتاج إلى نقد، ذلك بأن النقد الحديث لا ينظر إلى الشعرية التي تكون في النص الشعري من حيث القصد والنية، أو انعدامهما؛ فقد يقصد الشاعر إلى أن يقول شعراً ألف قصيد وقصيد، ويتكلّف وزن كلامه ويتجشّم تقفيته ما شاء الله له ذلك، فيدقّق ويحقّق، ولا يرتكب أي خطأ عروضي، غير أن ذلك كله ما كان ليشفع لكلامه الذي

قصد هو إلى شعريته كيما يكون شعراً، حتى بوجود خالص النية لديه، ومثول سبق القصد المُصرّ في نفسه، وإنّما يكون شعراً فقط إذا توافرت فيه خصائص الشعرية... فما فيه من مقدار هذه الشعرية هو الذي يُحدّد شعريته أو عدم شعريته.⁽¹⁵⁾

وعدم الاقتناع هذا من لدن الدكتور مرتاض ينمو متسارعاً، ليصل في نهاية المبحث إلى اعتراض صريح لشرط النية والقصد في الشعر، ويرى أنّ مصطلحيّ القصد والنية من المصطلحات الفقهية، وكان من الأجدي ألاّ يقحما في الشعر، فيقول: "ونعود إلى شرطية ابن رشيق المتمحّضة لقصدية قول الشعر، فنعترض على رأيه هذا، لأنّ القصد والنية هما من مصطلحات الفقهاء في السلوك التعبدي، فلا مدعاة لاصطناعهما في مسألة تحديد جمالية الشعر. وقد كنّا رأينا أنّ الشاعر إذا كان محروماً مُفحّماً، باصطلاح القدماء، لا يشفع له التعلّق بالنية، ولا إخلاص القصد في قرّضه الشعر، إذا خرج له نظماً ركيكاً، ونسجاً من الشعر سخيفاً."⁽¹⁶⁾

وإذا كان كلامه الأول على قدر كبير من الصّحة، ويكاد يكون من المسلّمات في زماننا؛ لأنّ الشعر لا يكون شعراً إذا فقد الخصائص الشعرية التي تجعله شعراً، "إنّ الشعرية في ذاتها هي ما يجعل الشعر شعراً، وما يسبغ على غير الشعر صفة الشعر، ولعلّها جوهره المطلق"⁽¹⁷⁾، ولكن نتساءل: ألم يُشر ابن رشيق في العمدة إلى بعض عناصر الشعرية هذه التي يتحدّث عنها الدكتور مرتاض، والتي تُعتبر لبّ الشعر وحقيقته، أم اكتفى بالمفهوم الشكلي للشعر، والذي لا يعدو أن يكون مجرد كلام ووزن وقافية، ونية سابقة لهذه العناصر؟

فابن رشيق قد أشار إلى أنّ الشعر -زيادة على كونه كلاماً موزوناً مقفياً بنية وقصد- فهو روح شعرية فيها تصوير وخيال وإبداع، وظلال وانفعالات وإحياءات، ودلالات وعواطف وتأثير، وهذا من خلال بعض أقواله، كجوابه عن السؤال: بم سُمّي الشاعر شاعراً؟ فيقول: "وإنّما سُمّي الشاعر شاعراً لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص ممّا أطاله سواه من الألفاظ، أو صرّف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلّا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التّقصير"⁽¹⁸⁾، وفي حديثه عن غاية الشعر تناول تأثيره في النفوس، وتحريكه الطّباع، وتفاعل المتلقّي معه، لذا يُبدي إعجابه بهذه المقولة، ويعتبر صاحبها أنقد النّاس، حين قال: "ولم أر أنقد من الذي قال: أشعر النّاس مَنْ أنت في شعره."⁽¹⁹⁾، ويبين أنّ الشعر لم يُجعل للتعبير عن المفاهيم الفلسفية، والنظريات العلمية، وسرد الأخبار والوقائع، وإنّ كان فبقدر ضئيل، إنّما الشعر هو تصوير وخيال وعواطف مؤثّرة، فيقول: "والفلسفة وجرّ الأخبار باب آخر غير الشعر؛ فإنّ وقع فيه شيء منهما فبقدر، ولا يجب أن يُجعلاً نُصبّ العين فيكونا متكأ واستراحة، وإنّما الشعر ما أطرب، وهزّ النفوس، وحرك الطّباع، فهذا باب الشعر الذي وُضع له، وبُني عليه، لا ما سواه."⁽²⁰⁾

أما ما تعلّق باعتراضه في كلامه الثاني، واعتبار النية من مصطلحات الفقهاء المرتبطة بالسلوك التعبدية، فهذا الاعتراض سيدخلنا في إشكال كبير، ألا وهو: أنّ الحديث الشريف لم يقصر النية على العبادات فقط، فالرسول صلى الله عليه وسلّم لم يقل: إنّما العبادات بالنيات، وإنّما قال: «إنّما الأعمال بالنيات»، ولم يُحدّد لنا جنس أو نوع العمل، ومن المعروف، وكما قال الكثير من النقاد، منهم الجاحظ وابن خلدون أنّ الشعر صناعة كبقية الصناعات، وما دام الأمر كذلك فلا مناص من ارتباط وتعلّق هذه الصناعة بالنية والقصدية. وبالتالي فالنية ليست مقصورة على العبادات، "فإذا كانت النية قيمةً أساساً، تحضر في أكثر الأعمال الفعلية كالهجرة مثلاً، فمن باب أولى حضورها في بقية الأعمال الأخرى ذات الطابع اللّسني، كالنصوص الشعرية التي تُعتبر مجالاً رحباً ترتبط به المقاصد والنوايا وتعلّق بنياته العميقة."⁽²¹⁾

وفي الطّرف المقابل نجد نقاداً أيدوا ابن رشيق في جعل النية مقوّمًا من مقوّمات الشعر، منهم الدكتور أحمد يزن، حيث يقول بعد أن ذكر حدّ الشعر عند ابن رشيق: "وابن رشيق على حقّ فيما قال، لأنّنا إذا نظرنا في القرآن نجد مثلاً: (مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)⁽²²⁾ من مجزوء الخفيف، كما أنّ قول الرسول صلى الله عليه وسلّم: «هل أنت إلاّ إصبعٌ دَمِيت، وفي سبيل الله ما لقيت»، عبارة تُشبه الشعر في وزنه. وبما أنّ هذا الكلام لم تتحقّق فيه أركان الشعر، وإنّما جاء موزوناً عَرَضاً فلذا قال باشتراط النية والقصد، ولا سيما أنّه رأى القرآن ينفي عن نفسه أن يكون شعراً."⁽²³⁾

إذن فاشتراط ابن رشيق النية في حدّ الشعر كان لغرض تمييز القرآن وبعض كلام النبي صلى الله عليه وسلّم الموزون عن الشعر، مثل ما تُميّز النية العبادات عن العادات، لهذا أكّد العلماء على وجودها واعتبارها شرطاً لصحّة معظم العبادات، بل اعتبرها البعض ركناً من أركان العبادة؛ لأنّها داخلة فيها. ولا يفهم من هذا أنّ قول الشعر عبادة كالصلاة والصوم، فالشعر يظلّ مجرد كلام، فيه الحسن والقبح، والشاعر مُثاب عليه ومُعاقب. ولكنّ القصد والنية متعلّقان بالوزن لكي يُتأكّد من كونه شعراً، وليس شيئاً آخر موزوناً دون قصد، ولا علاقة له بالشعر.

ومن المؤيدين أيضاً، نجد الدكتور حسين جمعة، الذي يرى أنّ ابن رشيق ربّما تكون له الأسبقية في هذه النقطة، فيقول: "وإذا افترضنا أنّ ابن رشيق لم يطّلع على الباقلاني فإنّنا نُسجّل لناقدنا أسبقية في مفهوم تحليل حدّ الشعر المُستقّى أصلاً من قدامة بن جعفر، ولكنّه وفّق مبدأ نقدي جديد مرتبط بالقصد...وهو ما تبناه القرطاجيّ من بعد وطوّره وبنى الشعر على أساس من المقاصد والأغراض."⁽²⁴⁾

وهذا ما فهمه أيضاً محمد مرتاض، وهو يُعقّب على مفهوم الشعر عند ابن رشيق، قائلاً: "وهو بهذا التعريف الذي وضعه للشعر يكون محتواه متلائماً مع الطبيعة الفقهية التي تضع النية في طبيعة ما تضعه من شروطٍ للعمل الذي يرومه النّاقد الجزائري، إنّما يهدف به إلى ما قرّره النقد الحديث كذلك بهذا الشأن، وسماه (المقصديّة)."⁽²⁵⁾

وخلاصة القول: أن ابن رشيق لما اعتبر أن أساس الشعر النية، كان يريد القول بأن النية تتعلق بقصدية وزنه وتوليده، ليمتاز بذلك عن غيره من الكلام الموزون، الذي قيل ولا يقصد به الشعر. وربما يشير ابن رشيق بالنية كذلك إلى جمالية المقصد ومثاليته باعتبارها أساس نظم الشعر الجيد والملتزم، ونعني به الشعور الصادق والإحساس العميق، والذي لا يتأتى إلا بصلاح وصدق النية، فإذا كان أعذب الشعر أكذبه؛ فإن أحسن الشعر أصدق، كما يقول بذلك أكثر نقدة الشعر.

2/ البسمة في الشعر:

والبسمة، هي اسم مصدر، والفعل منها (بَسَمَلَ)، وهي في اللغة مأخوذة من قولك: بسم الله، وهذا يسمّى بالنَّحت؛ وهو أن تختصر من كلمتين فأكثر كلمة واحدة بقصد الإيجاز، وهو سماعي، ليس له قاعدة تحكمه، ومنه: الهيلة، قول: لا إله إلا الله، و الحسبة، قول: حسبي الله، وغير ذلك كثير.⁽²⁶⁾

والبدء (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل الأمور سنة واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان يكتبها في رسائله، ويبدأ بها حديثه مع أصحابه. وقد جرت عادة الكتاب أن يفتتحوا مؤلفاتهم ورسائلهم (بسم الله الرحمن الرحيم) تبرُّكاً بهذه الكلمة العظيمة. هذا في الكتب والرسائل، ولا خلاف بين العلماء في ذلك، ولكن ما موقف العلماء والنقاد إذا كان هذا الكتاب أو المكتوب شعراً؟ وهل تُكتب البسمة في أوله؟

جاء في باب (حكم البسمة قبل الشعر) أن العلماء اختلفوا في جواز كتابة البسمة أمام الشعر، ويروي ابن رشيق هذه الآراء المختلفة، فيقول: "قال أبو جعفر النحاس: اختلف العلماء في كُتِبَ (بسم الله الرحمن الرحيم) أمام الشعر؛ فكَرِهَ ذلك سعيد بن المسيّب والزهري، وأجازهُ النُّخعي، وكذا يروى عن ابن عباس قال: أُكْتُبَ (بسم الله الرحمن الرحيم) أمام الشعر وغيره، قال أبو جعفر: ورأيتُ عليّ بن سليمان يميل إلى هذا، و قال، ينبغي أن يكتب أمام الشعر (بسم الله الرحمن الرحيم) لأنّه يجيء بعده (قال فلان) وما أشبه ذلك.. قلتُ أنا: إنّما هذا في الشعر إذا دُوّن، فأما قصيدة رفعها الشاعر إلى ممدوحه فلا يكتب قبلها اسم قائلها، لكن بعدها، وإذا كان الأمر هكذا فلا سبيل إلى كتاب البسمة: لأنّ العذر حينئذٍ ساقط."⁽²⁷⁾

إنّه من النادر حقاً أن تجد ناقدًا أو أديبًا تناول أحكام كتابة البسمة قبل الشعر، فأكثر من تناول هذه المسألة هم الفقهاء وعلماء الدين، وكانت آراؤهم متباينة إلى حدٍّ ما؛ جاء في الموسوعة الفقهية في كتابة البسمة قبل الشعر ما يلي: "ذهب الفقهاء إلى أنّه يُسنُّ ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» في ابتداء جميع الأفعال والأقوال غير المحظورة، وفي ابتداء الكتب والرسائل، عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «كلُّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»، أي: ناقص غير تام، فيكون قليل البركة."⁽²⁸⁾

وقال البهوتي: "ونقل ابن الحكم: لا تُكتب أمام الشَّعر ولا معه، وذكر الشعبي: أنَّهم كانوا يكرهونه. قال القاضي: لأنَّه يشوبه الكذب والهجو غالباً."⁽²⁹⁾ وفي كتاب تصحيح الدُّعاء جاء: "كلُّ مُحَرَّم أو مكروه، من قول أو عمل، لا يجوز افتتاحه بشيء من ذكر الله تعالى؛ لما فيه من الإمتحان، وافتتاح المعصية بالطَّاعة. وذلك مثل: كتابة البسمة أمام الشَّعر غير الحسن، واستفتاح اللَّعب المُحرَّم، والرَّهان المُحرَّم..."⁽³⁰⁾

وجاء في تحفة المُريد: "وقد قال العلماء لا يبدأ الشَّعر بالبسمة، ونقول الشَّعر الذي لا يبدأ بالبسمة هو المحرَّم، كهجو مَنْ لا يحلُّ هجوه، أو المكروه كالتغرُّل في غير معيَّن، وأمَّا ما يتعلَّق بالعلوم كهذه المنظومة فيبدأ بالبسمة اتفاقاً، وإنَّما لا يأتي بها نظماً كما فعل الشَّاطبي، حيث قال:

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ فِي النَّظْمِ أَوَّلًا تَبَارَكَ رَحْمَانًا رَحِيمًا وَمَوْئِلًا

لأنَّه خلاف الأوَّل."⁽³¹⁾

ويُدلي ابن رشيق برأيه في هذه المسألة بصفته ناقدًا وأديبًا، مع مُراعاته في الوقت نفسه الحكم الدِّيني، فيأخذ بالاعتبار أقوال العلماء في المسألة، ويبدو أنَّ ناقدنا على اطلاع وافٍ بعلوم الدِّين والفقه يُؤهِّله للخوض في مثل هذه المسائل، وهو يرى كتابة البسمة أمام الشَّعر إذا كان حسنًا، ويستثني من ذلك قصيدة رفعها شاعر إلى ممدوحه، وهذه عادة ما يكون اسم صاحبها بعدها وليس قبلها، فحينئذ لا سبيل إلى كتابة البسمة، وكأنَّه يربط كتابة البسمة بوجود اسم الشاعر قبل شعره، وفي هذا تعظيم لاسم الجلالة: حيث يُذكر أولاً، ويُستفتح الشَّعر به، ثم يُذكر اسم الشاعر بعده.

3/ الدعاء في الشَّعر:

ويعني به ابن رشيق الدعاء الذي يكون ضمن قصائد المديح للملوك والأمراء، ويشير إليه إشارة سريعة في (باب المبدأ والخروج والنهاية)، فيقول في مبحث (من دعاء الشعراء للملوك): "ومن هذه الجهة أكثر النَّاس من الدُّعاء لهم بطول العمر، حتَّى بلغوا بهم ما لا يُمكن، فقالوا: عِشْ أَبَدًا، واسلمْ مدى الدَّهر، وابقَ بقاء الزَّمان، ودُمْ مُدَّة الأَيَّام. واعترض النُّقاد في ذلك واختلفوا بحسب ما ينتحل كلُّ واحد منهم في قول أبي نواس للأمين:

يا أَمِينَ اللَّهُ عِشْ أَبَدًا دُمْ عَلَى الأَيَّامِ والزَّمَنِ

أَنْتَ تَبْقَى والفَنَاءُ لَنَا فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنْ

وفي كثير من مثله. وإذا خرج الكلام عن حدِّ الإمكان فإنَّما يُراد به بلوغ الغاية لا غير ذلك."⁽³²⁾ ويبدو أنَّ ابن رشيق لا يرى غضاضة في هذا المعنى، الذي لا يعدو عنده خروج الكلام عن حدِّ الإمكان، والقصد منه إيراد بلوغ الغاية لا غير، ونساءل: أية غاية يُرادها بمثل هذا المعنى في هذا الدعاء؟ إنَّ مثل هذا الخروج في المعنى عدَّه النقاد عيبًا من عيوب المعاني التي لا تجوز. جاء في كتاب نقد الشَّعر: "وممَّا جاء في الشعر وقد وُضع الممتنع في ما يجوز وقوعه، قول أبي نواس:

يَا أَمِينَ اللَّهَ عِشْ أَبَدًا دُمُ عَلَى الْأَيَّامِ وَالزَّمَنِ

فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاعل لهذا الممدوح بقوله: (عِشْ أَبَدًا) أمرًا أو دعاءً، وكلا الأمرين ممّا لا يجوز ومستقبِحٌ. ⁽³³⁾

ويزيد قدامة الأمر توضيحًا، على افتراض أنّ أحدًا يعترض ويعتبر هذا القول من الغلو الذي أجازته الناقد من قبل، فيقول: "ولعلّ معترضًا يعترض هذا القول ممّا في هذا الموضع، فيقول: إنّه مناقضة لِمَا استجزناه ورأيناه صوابًا في صدر هذا الكتاب من الغلو، ويجعل قول أبي نواس هذا غلوًا فيلزمنا تجويزه كما فصلنا تجويز الغلو. ونحن نقول: إنّ هذا وما أشبهه ليس غلوًا ولا إفراطًا بل خروجًا عن حدّ الممتنع الذي لا يجوز أن يقع؛ لأنّ الغلو إنّما هو تجاوز في نعت ما للشيء أن يكون عليه وليس خارجًا عن طباعه إلى ما لا يجوز أن يقع له... وليس في طباع الإنسان أن يعيش أبدًا." ⁽³⁴⁾

ثمّ يقول ابن رشيق في (ختم القصيدة بالدعاء): "وقد كره الحذاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء؛ لأنه من عمل أهل الضعف، إلّا للملوك؛ فإنّهم يشتهون ذلك كما قدّمت، ما لم يكن من جنس قول أبي الطيّب يذكر الخيل لسيف الدولة:

فلا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا إِلَى أَمَلٍ

فإنّ هذا شبيهه ما ذكر عن بغيز: كان يُصَابِحُ الأمير فيقول: لاصْبَحِ اللَّهَ الأمير بعافية، ويسكت ثمّ يقول: إلّا ومَسَاهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا، ويُماسيه فيقول: لا مَسَى اللَّهَ الأمير بنعمة، ويسكت سكتة ثمّ يقول: إلّا وصَبَّحَهُ بِأَتَمِّ مِنْهَا، أو نحو هذا، فلا يدعوله حتّى يدعو عليه؛ ومثل هذا قبيح، لا سيما عن مثل أبي الطيّب. ⁽³⁵⁾

ويتفق الكلاعي مع ابن رشيق في مسألة الدعاء إلى حدّ كبير، بيد أنّ الكلاعي يقصد المنثور من الكلام، فيقول: "الإكثار من الدعاء في الرّسائل من أهر الدلائل على ضعف البضاعة في الصناعة. وقد يُستسهل الإطناب في الدعاء في مخاطبة الملوك والأمراء." ⁽³⁶⁾

فالحذاق من الشعراء كرهوا ختم القصيدة بالدعاء، لمّا في ذلك من ضعف وعدم قدرة على الإتيان بخاتمة فيها من الإبداع والاختراع ما يُدهش المتلقّي، وتكون آخر ما يعلّق بذهنه. إلّا أنّهم استثنوا من ذلك القصائد التي يُمدح بها الملوك؛ لأنّهم يُحبُّون ذلك.

ولا نفهم ممّا سبق أنّ ابن رشيق يعترض على وجود الدعاء في الشعر، أو يُنكره جملةً وتفصيلاً، لأنّ الدعاء، وإن لم يكن غرضًا مستقلًّا من أغراض الشعر العربي، إلّا أنّه كان حاضرًا بقوة في هيكل القصيدة العربية، قديمها وحديثها، وابن رشيق يعرف هذا جيّدًا. ولكنّه لا يرى أن تُختم القصيدة بالدعاء مُبرّرًا ذلك بأنّ حذاق الشعر كرهوا ذلك؛ لأنّه دليل عجز وضعف من الشاعر، وعدم قدرة على الخروج من القصيدة إلّا من بابها السهل والميسور وهو الدعاء. ويُستثني من الممدوحين الملوك والأمراء لأنّهم يشتهون ذلك. غير أنّ ابن رشيق يُحذّر من أن يكون هذا الدعاء للملوك أو الأمراء على شاكلة وصف المتنبي لخيّل سيف الدولة، أو ما كان من بغيز حين يُصَابِحُ أو يُماسي الأمير، فهو يراه

قبيحا؛ لأنه لا يدعو له حتّى يدعو عليه. وفي هذا تلاعب بالمعنى المُراد؛ فالسكّنة على ما قبل أداة الاستثناء تجعل النّظم مضطرباً، والتعبير الدّعائي للممدوح قبيحاً، لأنه أصبح غامضاً، ومُوهماً بنقيضه.

ولأنّ محلّ الدعاء هو خاتمة القصيدة، كما جاء في المبحث (ختم القصيدة بالدعاء)، لا بدّ أن نشير إلى أنّ الخاتمة بوصفها إيذاناً بانتهاء القصيدة قد نالت حظاً من اهتمام النقاد القدامى، وسَمّوها حُسن الانتهاء. فهذا ابن رشيق يقول في ذلك: "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحكماً: لا تُمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أوّل الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قُفلاً عليه."⁽³⁷⁾

أمّا حازم فيقول في الخاتمة: "فأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعانٍ سارة فيما قُصِدَ به التّهاني والمديح، وبمعانٍ مؤسسية فيما قُصِدَ به التّعازي والرتاء. وكذلك يكون الاختتام في كلّ غرض بما يُناسبه."⁽³⁸⁾، ويقول في موضع آخر: "وإنّما وجب الاعتناء بهذا الموضع؛ لأنه مُنقطع الكلام وخاتمته. فالإساءة فيه مُعفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدّم عليه في النّفس. ولا شيء أقبح من كدّر بعد صَفْو، وترמיד بعد إنضاج."⁽³⁹⁾

وختاماً، نوجز ما استخلصناه من ملاحظات ونتائج من هذه الورقة البحثية في النقاط الآتية:

- 1- تناول ابن رشيق هذه المفاهيم (النية، البسملة، الدعاء)، وهي أساساً مفاهيم دينية، تدل على اهتمامه بالاتجاه الديني والخلقي في النقد، زيادة على الاتجاه الفني الذي اتّبعه في كتابه العمدة.
- 2- اشتراط ابن رشيق النية كعنصر رئيسي من مقومات الشعر كان القصد منه تمييز الشعر عن كلّ قول تتوافر فيه بعض مقومات الشعر وليس بشعر، ولا يُمكن أن يكون شعراً؛ لأنّ صاحبه لم يقصد الشعر به، كبعض آيات القرآن الكريم وبعض أحاديث النبي صلّى الله عليه وسلّم.
- 3- لاحرج من كتابة البسملة أمام الشعر الحسن، تبرّكاً بذكر اسم الله وتعظيماً له؛ بل الأولى كتابتها والبدء بها. أمّا إذا كان الشعر قبيحاً فلا يجوز بدؤه بالبسملة؛ لأنّ فيه معصية، ويتنافى مع توقير الله وتعظيمه. وهذا ما يراه ابن رشيق ويقول به.
- 4- كره ابن رشيق ختم القصيدة بالدعاء للممدوح، لأنه ضعف من الشاعر وقلة بضاعة، مستثنياً الملوك لأنّهم يُحبّون ذلك، ما لم يكن على طريقة المتنبي أو بغیض، فتلك طريقة فجّة قبيحة في الدعاء.

الاحالات

- 1 - الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري: *الترغيب والترهيب*، تح: قسم التحقيق والبحث العلمي، ج 1، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، 2013م، ط2، ص9-10.
- 2 - ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني: *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009م، دط، ص103.

- 3 - أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، دط، ص 64.
- 4 - حميد سمير: الشعر العربي القديم (رؤية إسلامية)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 2002م، دط، ص 122.
- 5 - ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 3، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، دط، ص 354.
- 6 - حميد سمير، المرجع السابق، ص 125.
- 7 - يُنظر، محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ج 2، رقم الحديث: 2802، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، 2014م، ط 2، ص 282. ويُنظر أيضاً، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، رقم الحديث: 1796، دار التقوى، القاهرة، مصر، 2012م، ط 1، ص 557.
- 8 - ابن رشيق: العمدة، ج 1، ص 155.
- 9 - المصدر نفسه، ص 110.
- 10 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1998م، ط 7، ص 188-189.
- 11 - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد الصقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، دت، ط 3، ص 55.
- 12 - حميد سمير: الشعر العربي القديم، ص 123.
- 13 - يُنظر، إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، الأردن، 1993م، ط 2، ص 455.
- 14 - عثمان موافي: في نظرية الأدب (من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم)، ج 1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000م، ط 3، ص 21.
- 15 - عبد الملك مرتاض: قضايا الشعرية (متابعة وتحليل لأهم قضايا الشعر المعاصر)، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، 2009م، ط 1، ص 48.
- 16 - المرجع نفسه، ص 52.
- 17 - مرشد الزبيدي: اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999م، دط، ص 103.
- 18 - ابن رشيق: العمدة، ج 1، ص 100.
- 19 - المصدر نفسه، ص 78.
- 20 - نفسه، ص 110.
- 21 - حميد سمير: الشعر العربي القديم، ص 124.
- 22 - سورة فاطر، الآية: 18.
- 23 - أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1986م، دط، ص 145.
- 24 - حسين جمعة: ابن رشيق القيرواني وآراؤه النقدية في العمدة، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج 76، ج 3، جانفي 2001م، ص 581.

- ²⁵ - محمد مرتاض: النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره، دراسة وتطبيق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000م، دط، ص55.
- ²⁶ - يُنظر، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تح: جاد المولى بك ومحمد إبراهيم وعلي البجاوي، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1986م، دط، ص482-484.
- ²⁷ - ابن رشيق: العمد، ج2، ص269.
- ²⁸ - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: الموسوعة الفقهية، ج26، دارالصفوة، الكويت، 1992م، ط1، ص120.
- ²⁹ - منصور بن يونس بن إدريس البهوتي: كشف القناع عن متن الإقناع، ج1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1983م، دط، ص336.
- ³⁰ - أبو زيد بكر بن عبد الله: تصحيح الدعاء، دارالعاصمة، الرياض، السعودية، 1999م، ط1، ص47-48.
- ³¹ - إبراهيم البيجوري: تحفة المريد، شرح جوهرة التوحيد، تح: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م، ط2، ص10. والبيت في متن الشاطبية، القاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي: متن الشاطبية، دارالغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، سوريا، 2010م، ط5، ص9.
- ³² - ابن رشيق: العمد، ج1، ص186-187. والبيتان في الديوان، أبو نواس الحسن بن هانئ: ديوان أبي نواس برواية الصولي، تح: بهجت عبد الغفور، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2010م، ط1، ص358.
- ³³ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص202.
- ³⁴ - المصدر نفسه: والصفحة نفسها.
- ³⁵ - ابن رشيق: العمد، ج1، ص199-200. والبيت في الديوان، أبو الطيب أحمد بن حسين المتنبي: ديوان المتنبي، تح: الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2014م، ط1، ص266.
- ³⁶ - أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1966م، دط، ص72-73.
- ³⁷ - ابن رشيق: العمد، ج1، ص198.
- ³⁸ - أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، دط، ص306.
- ³⁹ - المصدر نفسه، ص285.